سي أس لِويس

المسيحية المجرّدة

ترجمة: سعيد ف. باز

OPHIR

أوفـــير
للطباعة المتخصصة والنشر

Originally published in the U.K. under the title: Mere Christianity
Copyright © CS Lewis Pte. Ltd, 1942, 1943, 1944, 1952
Published by Jongbloed Ophir under license from the CS Lewis Company Ltd

المسيحية المجردة
الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٦
حقوق الطبع محفوظة

Arabic Edition Copyright © 2006 by Ophir Publishing, a division of Jongbloed bv – Holland. All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

أوفير للطباعة و النشر
ص.ب.٣٠٦٢, ١١١٨١ عمان, الاردن
هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+ فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+
Email: info@ophir.com.jo
www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٢/٣٢٧٩
ISBN: 90-5950-041-5

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة اصدار هذا الكتاب, أو أي جزء منه, أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله, أو استنساخه بأي شكل من الأشكال, دون إذن خطي مسبق من الناشر.

المحتويات

تمهيد ٧

تقديم ١٣

الباب الأوّل: مفهوم الصواب والخطإ مفتاحاً لفهم معنى الكون

١. قانون الطبيعة الإنسانيَّة ٢١

٢. بضعة اعتراضات ٢٦

٣. حقيقة القانون ٣١

٤. ما يكمن وراء القانون ٣٦

٥. قلقُنا مُبرَّر ٤١

الباب الثاني: ما يؤمن به المسيحيُّون

١. المفاهيم المتزاحمة عن الله ٤٩

٢. الاجتياح ٥٣

٣. الخيار المذهل ٥٩

٤. التائب المثالي ٦٤

٥. الاستنتاج العملي ٧٠

الباب الثالث: السلوك المسيحي

١. أبعادُ الأخلاقيَّاتِ الثلاثة ٧٧

© OPHIR

٢. «الفضائل الأساسيَّة» ٨٣
٣. الأخلاق الاجتماعيَّة ٨٨
٤. الأخلاق والتحليل النفسي ٩٣
٥. الأخلاق المتعلِّقة بالجنس ٩٨
٦. الزواج المسيحيّ ١٠٦
٧. الغفران ١١٥
٨. الخطيَّة الكبيرة ١٢٠
٩. المحبَّة ١٢٧
١٠. الرجاء ١٣١
١١. الإيمان (١) ١٣٥
١٢. الإيمان (٢) ١٤٠

الباب الرابع: أسمى من الشخصيّة، أو خطوات أولى في عقيدة الثالوث

١. الخلق يختلف عن الولادة ١٤٧
٢. الله الثالوثي الأقانيم ١٥٣
٣. الزمان وما وراء الزمان ١٥٨
٤. العدوى الصالحة ١٦٣
٥. الجنودُ الدُّمى العنيدون ١٦٨
٦. ملاحظتان ١٧٢
٧. لنتظاهر ١٧٥
٨. أَصعبةٌ المسيحيَّة أم سهلة ١٨١
٩. حساب النفقة ١٨٦
١٠. ناس طيِّبون أو أناس جُدد ١٩١
١٢. الإنسان الجديد ٢٠٠

© OPHIR

١

المفاهيم المتزاحمة عن الله

لقد طُلب إليَّ أن أُخبركم بما يؤمن به المسيحيُّون. وسأبدأ بأن أُخبركم بأمرٍ لا ينبغي للمسيحيِّين أن يؤمنوا به: إذا كنتَ مسيحياً حقيقيّاً فلستَ مُضطرّاً لأنَّ تؤمن بأنَّ جميع الديانات الأُخرى هي على خطإٍ في كلِّ شيء. أمّا إذا كنتَ مُلحداً، فينبغي لك فعلاً أن تؤمن بأنَّ النقطة الجوهريَّة في جميع ديانات العالم قاطبةً هي مجرَّد غلطة كُبرى. وإذا كنت مسيحيّاً بالحقّ، فلك أن تعتقد أنَّ تلك الديانات كلَّها، حتَّى أكثرهنَّ غرابةً، تتضمَّن على الأقلِّ أثراً من آثار الحقّ. فلمَّا كنتُ ملحداً، كان عليّ أن أُحاول إقناع نفسي بأنَّ معظم الجنس البشريِّ طالما كانوا على خطإٍ في المسألة التي تعنيهم أكثر من سواها. ولكنْ لمَّا صرتُ مسيحيّاً حقيقيّاً، تمكَّنت من اعتناق رأيٍ أكثر تحرُّراً. غير أنَّ كون المرء مسيحيّاً بالطبع، يعني فعلاً الظنَّ بأنَّه حيث تختلف المسيحيَّة عن الديانات الأُخرى تكون هي على حقّ والأُخَر على خطأ. وكما في علم الحساب، فإنَّ لكلِّ حاصلٍ جواباً صحيحاً واحداً فقط، أمَّا جميع الأجوبة الأُخرى فهي خطأ؛ ولكنَّ بعضاً من الأجوبة الخاطئة أقربُ بكثيرٍ من سواها إلى الصواب.

إنَّ أوَّل انقسامٍ كبير في البشرية هو توزُّعها بين أكثريَّةٍ يؤمنون بإلهٍ أو آلهة من نوعٍ ما وأقليَّةٍ لا يؤمنون. من هذه الناحية، تقف المسيحيَّة في صفِّ الأكثريَّة، حيث اليونانيُّون والرومانيُّون القُدامى والبدائيُّون العصريُّون والرواقيُّون والأفلاطونيُّون والهندوس وغيرهم، على طرف نقيضٍ من الماديَّة الأوروبيَّة الغربيَّة الحديثة.

والآن أنتقلُ إلى ثاني انقسامٍ كبيرٍ. فأولئك الذين يؤمنون بالله يمكن أن يُقسَموا تبعاً لنوع الإله الذي يؤمنون به. وفي هذا الموضوع فكرتان مختلفتان جدّاً. إحداهما

هي الفكرة القائلة بأنَّ الله خارج نطاق الخير والشّر. فنحن البشر ندعو شيئاً خيراً وشيئاً آخر شرّاً. ولكنَّ بعض الناس يذهبون إلى أنَّ هذه ما هي إلاَّ وجهة نظرنا البشريَّة. ومن شأن هؤلاء أن يقولوا إنَّك كلَّما صرتَ أكثر حكمةً قلَّ نزوعك إلى تسمية شيءٍ ما خيراً أو شرّاً، وازددتَ إدراكاً أنَّ كلَّ شيءٍ هو صالحٌ بطريقة ما ورديءٌ بطريقةٍ أُخرى، وأنَّ لا شيء يمكِن أن يكون مختلفاً. وبناءً على ذلك، يعتقد هؤلاء أنَّه قبلَ أن تصل إلى أيَّة نقطة قريبة من وجهة النظر الإلهيَّة يكون التمييز قد تلاشى كلّيّاً. فنحن نصف سرطاناً بأنَّه رديء، كما يقولون، لأنَّه يقتل إنساناً؛ ولكنْ لعلّك أيضاً تصف جرَّاحاً بارعاً بأنَّه رديء لانَّه «يقتل» السرطان! إنَّ الأمر بمجمله يتوقَّف على وجهة النظر. أمَّا الفكرة الأُخرى والمعاكسة فهي أنَّ الله «صالح» و «بارٌّ» بكلِّ تأكيد، إلهٌ له مواقف محدَّدة، يحبُّ المحبَّة ويكره الكراهية، ويريد منَّا أن نتصرَّف بطريقةٍ معيَّنة وليس بطريقةٍ أُخرى. وأُولى هاتين الفكرتين (تلك التي تقول بأنَّ الله خارج نطاق الخير والشرّ) تُدعى «وحدة الوجود» (Pantheism). وقد اعتنقها الفيلسوف البروسيُّ الكبير هيغل، والهندوس على حدٍّ فهمي لهم. أمَّا الفكرة الأُخرى فيعتنقها اليهود والمسيحيون والمُسلِمون.

وإلى جانب هذا الفارق الكبير بين وحدة الوجود والفكرة المسيحيَّة عن الله، يسير عادةً فارقٌ آخر. فالقائلون بوحدة الوجود يعتقدون عادةً أنَّ الله، إذا جاز التعبير، يُحيي الكون كما تُحيي أنت جسدك: أنَّ الكون هو الله تقريباً، بحيث إنَّه إذا لم يوجد الأوَّل فلن يوجد الثاني، وكلُّ ما نجده في الكون هو جزءٌ من الله. أمَّا فكرة الإيمان المسيحيّ فمختلفةٌ تماماً. فالمسيحيُّون يعتقدون أنَّ الله أبدع الكون وصنعه، مثلما يرسم الإنسان لوحةً أو يؤلِّف لحناً. والرسام ليس لوحة، ولا يموت إذا أُتلفت لوحته. لك أن تقول إنَّه «وضع فيها كثيراً من ذاته»، ولكنَّك إنَّما تعني أنَّ كلَّ ما فيها من جمال وفائدة قد نبع من رأسه. وليست مهارته في اللوحة تماماً مثلما هي في رأسه، ولا حتَّى في يديه. ورجائي أنَّك ترى كيف أنَّ هذا الفارق بين القائلين بوحدة الوجود والمسيحيِّين يترابط مع الفارق الآخر. فإن لم تنظر إلى الفرق والتفريق بين الخير والشرِّ بمنتهى الجِدِّيَّة، فعندئذٍ يسهل القول إنَّ أيَّ شيءٍ تجده في هذا العالم يكون جزءاً من الله. ولكنْ بالطبع إذا كنتَ تحسب أنَّ بعضَ الأشياء سيِّئةٌ فعلاً، وأنَّ الله صالحٌ حقّاً، فعندئذٍ لا يمكنك أن تقول مثل ذلك

القول. ويجب عليك أن تؤمن بأنَّ الله منفصل عن العالم وأنَّ بعض الأُمور التي نراها فيه مُناقِضة لمشيئته. فإذ يواجه القائلُ بوحدة الوجود سرطاناً أو فقراً مدقعاً، يمكنه أن يقول: «لو تسنَّى لك فقط أن ترى ذلك من وجهة النظر الإلهيَّة، لأدركتَ أنَّ هذا أيضاً الله.» أمَّا المسيحيُّ فيُجيبه: «لا تتكلّمْ بهراء سخيف يجعلك عرضةً لدينونة الله.» وذلك لأنَّ المسيحيَّة ديانةٌ كفاح. فهي ترى أنَّ الله صنع العالم، وأنَّ المكان والزمان، والحرَّ والبرْد، وجميع الألوان والطعوم، وكلَّ حيوانٍ ونبات، هي أمورٌ «أبدعها الله من عقله» مثلما يؤلِّف المرءُ قصَّةً من القصص. ولكنَّ المسيحيَّة تعتقد أيضاً أنَّ أُموراً عديدة كثيرة ممّا صنعه الله في العالم قد فسدت، وأنَّ الله يُصِرُّ إصراراً مؤكَّداً مشدَّداً على أن نضع تلك الأُمور في نصابها من جديد.

ثُمَّ إنَّ ذلك يُثير سؤالاً كبيراً جدّاً: إذا كان إلهٌ صالح قد صنع العالم، فلماذا فسد هذا العالم؟ ومرَّت سنون كثيرة وأنا بكلِّ بساطة أرفض الإصغاء إلى أجوبة المسيحيِّين عن هذا السؤال، لأنَّني طالما أصررتُ على الشعور بهذا: «مهما كان ما تقولونه، ومهما كانت حججكم بارعة، أفليس أبسطَ وأسهلَ بكثيرٍ أن نقول إنَّ العالم لم تصنعه قوَّةٌ عاقلة من أيِّ نوع؟ أوليست جميع حججكم مجرَّد محاولة معقَّدة لتفادي ما ليس بحاجة إلى برهان؟» غير أنَّ ذلك أوقعني من جديد في صعوبةٍ أُخرى!

وقد كانت حجَّتي ضدَّ الله أنَّ العالم بدا في منتهى القساوة والظلم ولكنْ كيف حصلتُ على مفهوم الظُّلم والعدل هذا؟ إنَّ المرء لا يصف خطّاً بأنَّه غير مستقيم إلاَّ إذا كانت لديه فكرةٌ ما عن ماهيَّة الخطِّ المستقيم. فبماذا كنتُ أُقارن هذا العالم لمَّا دعوتُه غيرَ عادل؟ وإذا كان العرضُ كلُّه سيِّئاً وتافِهاً من الألف إلى الياء، إذا جاز التعبير، فلماذا ألفيتُ أنا نفسي في ردَّة فعلٍ عنيفة هكذا تُجاهَه، مع أنَّ من المفترض أن أكون جزءاً من العرض؟ إنَّ الإنسان يشعر بالبَلَل عندما يسقط في الماء، لأنَّه ليس حيواناً مائيّاً؛ أما السمكة فما كانت لتشعر بالبَلَل. وكان من شأني طبعاً أن أتخلَّى عن مفهومي للعدل بمجمله بقولي إنَّه ليس شيئاً سوى فكرة خاصَّة من بنات أفكاري. ولكنْ لو فعلتُ ذلك، لانهارت أيضاً حجَّتي ضدَّ الله، لأنَّ رُكن تلك الحجَّة كان القول بأنَّ العالم غيرُ عادل فعلاً، وليس فقط أنَّه لم يصدف أن يُرضيَ ميولي. وهكذا، ففي محاولتي إثبات عدم وجود الله تبيَّن لي في ذلك الفعل

ذاته حقيقة وجوده. لأن الإنسان بإنكاره وجود العدل، في فعلٍ ما، يُرغَم على التسليم بوجود مفهوم للعدالة. وبناءً على ذلك يتبيَّن أنَّ الإلحاد ساذجٌ جدّاً. ولو كان الكون كلُّه عديم المعنى، لَما كان قد تبيَّن لنا إطلاقاً أنَّه عديمُ المعنى. فالوضع شبيهٌ تماماً بهذا: لو لم يكُن في العالَم نور، ولم تكن في العالم مخلوقاتٌ لها أعيُن، لَما كنَّا نعرف قطعاً أنَّ الظلمة مسيطرة، ولكانت الظلمة كلمةً عديمة المعنى!

OPHIR

٢

الاجتياح

حقّاً إنَّ الإلحادَ ساذجٌ جدّاً. وسأُطلِعكم أيضاً على رأيٍ آخر هو ساذج جدّاً كذلك، ألا وهو الرأي الذي أدعوه «المسيحيَّة الهيِّنة»- ذلك الرأي الذي يقول بكلِّ بساطة إنَّ في السماء إلهاً طيِّباً وإنَّ كلَّ شيء بخير، تاركاً جميع العقائد الصعبة والرهيبة المتعلقة بالخطيَّة وجهنَّم وإبليس، وعنِ الفداء. فهاتان كلتاهما من الفلسفات الصبيانيَّة.

ليس من خيرٍ في طلبِ ديانة بسيطة. وبعد إمعان النظر، ليست الأشياء الحقيقيَّة بسيطة. إنَّها تبدو بسيطة، ولكنَّها ليست كذلك. فالطاولة التي أنا جالسٌ إليها تبدو بسيطة. ولكنِ اسأل عالِماً أن يُبيِّن لك ممَّا هي مصنوعةٌ فعلاً (كلَّ ما يتعلَّق بالذرّات وكيف ترتدُّ عنها الأمواج الضوئيَّة وتقع في عيني، وما تفعله بالعصب البصريّ، وما يفعله ذلك بدماغي) فتجدَ بالطبع أنَّ ما ندعوه «رؤية طاولة» يُدخِلك في ألغاز وتعقيدات لا تكاد تبلغ آخِرها. قولٌ طفولي الادعاء بأنَّ صلاة الولد تبدو بسيطة، وإذا قنعتَ بالتوقُّف هنا، فخيرٌ وحسن. أمَّا إذا لم تقنع بذلك، والعالمُ الحديث لا يقنع عادةً، وإذا أردتَ ان تمضي قُدماً وتسأل عمَّا يحدث فعلاً، فعليك عندئذٍ أن تكون على استعدادٍ لمواجهة أمرٍ صعب. وإن طلبنا شيئاً يتعدَّى البساطة، يكون من السخف إذ ذاك أن نتشكَّى من كون ذلك الشيء غيرَ بسيط.

غير أنَّه غالباً ما ينتهج هذا النهجَ الساذجَ أشخاصٌ غيرُ سُذَّج، ولكنَّهم، بوعيٍ أو بلا وعي، يريدون تدمير المسيحيَّة. هؤلاء القوم يقدِّمون صورةً من المسيحيَّة تناسب ابن ستِّ سنين، ويجعلون تلك الصورة المصطنعة غرضاً لهجومهم. فإذا حاولتَ أن تُفسِّر العقيدة المسيحيَّة كما يعتنقها حقّاً راشدٌ مُتنوِّر، يتذمَّرون عندئذٍ

من كونك تُدوِّخ رؤوسهم ومن كون الموضوع بجملته معقَّداً جدّاً، زاعمين أنَّه إن كان الله موجوداً فهم متيقّنون بأنَّه لا بدَّ أن يجعل «الدِّين» بسيطاً، لأنَّ البساطة جميلة، إلخ. إنَّما عليك أن تكون محترساً من هؤلاء القوم لأنّهم سيُبدِّلون مواقعهم كلّ دقيقة ويضيِّعون وقتك فحسْب. وتنبَّهْ أيضاً إلى فكرتهم القائلة بأنْ لا بدَّ لله أن يجعل الدين بسيطاً، كما لو كان الدين شيئاً اخترعه الله، وليس إعلاناً منه لنا لحقائق معيَّنة راسخة تتعلَّق بطبيعته تعالى.

لكنَّ الحقيقة، فضلاً عن كونها معقَّدة، تبدو في العادة غريبةً، حسب خبرتي. فهي ليست مصقولة، ولا بديهيَّة، ولا هي ما تتوقَّعه أنت. مثلاً، لمَّا أدركتَ أنَّ الأرض والكواكب الأُخرى تدور كلُّها حول الشمس، كان ينبغي لك على نحوٍ طبيعيٍّ أن تتوقَّع أنَّ جميع الكواكب صُنِعت بحيث تكون متماثلة: كأن تكون كلُّها على مسافاتٍ متساوية في ما بينها، أو على مسافاتٍ تتزايد باطِّراد، أو تكون كلُّها ذات حجمٍ واحد، وإلاَّ فهي تكبر أو تصغر كلَّما ابتعدتَ عن الشمس. ولكنّك بالحقيقة لاَ تجد نسقاً أو منطقاً (يمكننا أن نراه) في ما يتعلَّق بحجم الكواكب أو بالمسافات بينها. ثمَّ إنَّ لبعضها قمراً واحداً، ولأحدها أربعةُ أقمار، ولآخر قمران، وليس لبعضها أيُّ قمر، ولواحدٍ منها حلقة حواليه.

ففي الواقع أنَّ الحقيقة شيءٌ ما كان ممكناً أن تحزره. وهنا سببٌ من الأسباب التي تدفعني إلى الإيمان بالمسيحيَّة. فهي ديانة لم يكن ممكناً أن تحزرها. ولو أنَّها قدَّمت إلينا تماماً ذلك الكون الذي طالما توقَّعنا نوعه، لانبغى لي أن أشعر بأنَّها منِ اختراعنا. ولكنَّها بالحقيقة ليست ذلك الشيءَ الذي كان من شأن أيِّ امرىءٍ أنَ يخترع مثله. إنها تمتلك تماماً تلك الأطوار الغريبة التي تتميَّز بها الأمورُ الحقيقيَّة. فلنتخلَّ إذاً عن تلك الفلسفات الصبيانيَّة كلِّها، تلك الأجوبة ذات التبسيط المفرط. إذ إنَّ المسألة ليست سهلة، والإجابة لن تكون بسيطةً أيضاً.

وما هي المسألة؟ إنَّها عالَمٌ يحتوي على كثيرٍ ممّا هو رديءٌ بشكلٍ واضح وعديمُ المعنى ظاهريّاً، ولكنَّه يحتوي على مخلوقاتٍ نظيرنا تعرف أنَّه رديء وعديم المعنى. وثمَّة فقط وجهتا نظر تواجهان الحقائق كلَّها. إحداهما وجهة النظر المسيحيَّة القائلة بأنَّ هذا عالمٌ قد فسد، إلاَّ أنَّه ما يزال محتفظاً بذكرى ما كان ينبغي أن يكونه. أمَّا الأُخرى، فهي وجهة النظر المعروفة بالثُنائيَّة (Dualism). وتعني الثُنائيَّة اعتقادَ

وجود قوَّتين متساويتين ومستقلَّتين وراء كلِّ شيء، إحداهما خيِّرة والأُخرى شرِّيرة، وكون هذا العالم ساحةَ المعركة التي فيها تخوضان حرباً لا نهاية لها. وأعتقد شخصيّاً أنَّ الثُنائيَّة، بعد المسيحيَّة، هي أشرفُ العقائد وأكثرُها معقوليَّةً بين كلِّ ما هو قيدُ التداوُل. غير أنَّ فيها شَرَكاً.

من المفترض أن تكون القوَّتان، أو الروحان أو الإلهان (الخير والشر) مستقلَّتين تماماً. وكلتاهما موجودتان منذ الأزل. ولم تصنع أيَّة واحدة منهما الأُخرى، وليس لأيَّة واحدة منهما حقٌّ يفوق حقَّ الأُخرى في أن تدعو ذاتها الله. ويُفترَض أنَّ كلتيهما تحسب أنَّها صالحة فيما تحسب أنَّ الأُخرى طالحة. وإحداهما تحبُّ البغضاء والقساوة، فيما تحبُّ الأُخرى المحبَّة والرحمة، وكلتاهما تدعم رأيها الخاصّ. فالآن، ماذا نعني حين ندعو إحداهما القوّة الصالحة، والأُخرى القوَّة السيّئة؟ إن كل ما تقوله هو إنَّه يصدف أن نُفضِّل الواحدة على الأُخرى، كتفضيل البيرة على العصير، أو إنَّه مهما كان رأي القوَّتين في الأمر، وأيَّةً منهما يصدف أن نحبَّ نحن البشرَ الآن، فإحداهما طالحة، بل على خطإٍ بالفعل، في حسبان ذاتها صالحة. أمَّا إن كان كل ما نعنيه هو أنَّه يتَّفق أن نُفضِّلَ الأولى، فعندئذٍ يجب أن نكفَّ عن التحدُّث عنِ الصلاح والطلاح تماماً. وذلك لأنَّ صفة الصلاح تعني ما ينبغي لك أن تُفضِّله بصرف النظر عمَّا يصدف أن تحبَّه في أيِّ وقتٍ محدَّد. فإذا كان معنى كون الشيء صالحاً أن تقف في الصفِّ الذي يصدف أنَّك تميل إليه، لغير سبب وجيه، فإنَّ الصالح عندئذٍ لن يستحقَّ أن يُدعى صالحاً. وعليه، يجب أن نعني أنَّ إحدى القوَّتين خاطئة فعلاً وأنَّ الأُخرى صائبة حقّاً.

ولكنّك لحظةَ تقول ذلك، تُدخِل إلى الكون شيئاً ثالثاً، فضلاً عن القوَّتين المذكورتين: قانوناً أو معياراً أو قاعدةً للصواب تؤيِّدها إحدى القوَّتين فيما تتنافى وتتنافر الأُخرى معها. ولكن بما أنَّ القوَّتين خاضعتان لحُكم ذلك المِعيار، فإنَّ هذا المعيار أو الكائنَ الذي صنع هذا المعيار، أبعدُ واسمى بكثير من كلتا القوَّتين، وسيكونُ هو الإلهَ الحقيقيّ. وبالحقيقة أنَّ ما عنيناه بدعوة إحداهما صالحةً والأُخرى طالحة يتبيَّن أنَّه يُفيد أنَّ إحداهما على علاقة صحيحة بالإله الأسمى الحقيقيّ، أمّا الأُخرى فعلى علاقةٍ خاطئةٍ به.

هذا، ويمكننا إيضاح النقطة عينها بطريقة أُخرى. إذا كانت الثُنائيَّة صحيحة،

فلا بدَّ أن تكون القوَّة الطالحة كائناً يحبُّ الطلاح لأجل ذاته. ولكنْ ليس لدينا في الواقع أيُّ اختبار لأيِّ شخص يحبُّ الطلاح لأجل الصلاح فحسب. وأقرب ما يمكننا أن نصل إليه هنا هو في مجال القساوة. غير أنَّ الناس، في واقع الحياة، يكونون قُساة لواحدٍ من سببين: إمَّا لأنَّهم ساديُّون (أي لأنَّ لديهم انحرافاً جنسيّاً معيَّناً يجعل القساوة باعثاً للمتعة الجنسيَّة الشهوانية عندهم)، وإمَّا من أجل شيءٍ سيجنُونه منها: كالمال أو السلطة أو السلامة. غير أنَّ المتعة والمال والسلطة والسلامة، في ذاتها، كلُّها أُمور صالحة. إنَّما يكمن الطلاح في نشدانها بالأُسلوب الخطأ، أو في الطريق الباطل، أو بإفراط وإسراف. ولستُ أعني بالطبع أنَّ الذين يفعلون ذلك ليسوا أشراراً جدّاً، إنَّما أعني أنَّ الشرَّ، عندما تتفحَّصه، يتبيَّن أنَّه نشدان خيرٍ ما بالطريقة الخاطئة. ففي وسعك أن تكون خيِّراً لأجل الخير المحض. إنَّما ليس في وسعك أن تكون شريراً لأجل الشرِّ المحض. إذ يمكنك أن تؤدِّيَ فعلَ لطف حينما لا تكون ميّالاً إلى اللطف، وحينما لا يؤتيك أيَّة متعة، لمجرَّد كون اللطف صالحاً. ولكنَّ أحداً لم يرتكب قطُّ فعلَ قساوة، فقط لأنَّ القساوة طالحة، بل فقط لأنَّ القساوة كانت مُمتِعة أو نافعة له. بعبارةٍ أخرى، لا يمكن أن ينجح الطلاح، ولو في كونه طالحاً، بالطريقة نفسها التي بها يكون الصلاح صالحاً. فالصلاح، إذا جاز التعبير، هو ذاتُه. أمّا الطلاح فهو صلاحٌ مُفسَد. ولا بدَّ أن يكون هنالك شيءٌ صالح أوّلاً قبل أن يمكن إفساده. فنحن دعونا الساديَّة انحرافاً جنسيّاً؛ ولكنْ لا بدَّ أوَّلاً من حيازتك لمفهوم السلوك الجنسيِّ السويّ قبل أن تتمكَّن من التحدُّث عن كونه منحرفاً. وفي وسعك أن ترى أيَّ سلوك هو الانحراف لأنَّك تستطيع أن تفسِّر المنحرف على أساس السويّ، ولا يمكنك أن تُفسِّر السويَّ على أساس المنحرف. ويترتَّب على ذلك أنَّ هذه القوَّة الطالحة، المفتَرض أنَّها على قدم المساواة مع القوَّة الصالحة وأنَّها تحبُّ الطلاح مثلما تحبُّ القوَّةُ الصالحة الصلاح، هي مجرَّد بعبع. ولكي تكون هذه القوَّة طالحة، ينبغي أن يكون لديها أمور صالحة تريدها ثمَّ تنشدها بالطريقة الخاطئة: ينبغي أن تكون لديها حوافز كانت في الأصل صالحة كي تتمكَّن من جعلها منحرفة. ولكنْ إذا كانت القوَّة طالحة، فلا يمكنها أن تزوِّد ذاتها بأمورٍ صالحة ترغب فيها، ولا بحوافز صالحة تجعلها منحرفة. فلا بدَّ لهذه القوَّة من أن تستمدَّ كِلا النوعين من القوَّة الصالحة. وإن كانت الحال على هذا المنوال،

فهي ليست مستقلَّة، بل هي جزءٌ من عالم القوَّة الصالحة: وقد صنعتها إمَّا القوَّةُ الصالحة وإمَّا قوَّةٌ مّا فوقهما كلتيهما.

ولنعبِّرْ عن هذا المفهوم بطريقة أبسطَ بعدُ. لكي تكون تلك القوَّة طالحة، ينبغي أن تنوجد ويكون لها عقل وإرادة. ولكنَّ الانوجاد والعقل والإرادة هي أمورٌ صالحة في ذاتها. ولذلك ينبغي لها أن تستمدَّهنَّ من القوَّة الصالحة: حتَّى إنَّها لكي تكون طالحة يجبُ أن تقترض أو تسرق من مُناوئتها. هل بدأتَ الآن تدرك لماذا قالت المسيحيَّة دائماً إنَّ إبليس هو ملاك ساقط؟ فليست هذه مجرَّد قصَّة من القصص المكتوبة للصغار بلِ اعترافٌ حقيقيٌّ بحقيقة كون الشرِّ طُفيليّاً، لا شيئاً أصليّاً. فالقوى التي تمكِّن الشرَّ من الاستمرار هي قوىً حصل عليها من الخير وجميع الصفات التي تمكِّن الإنسان الطالح من أن يكون رديئاً على نحوٍ فعّال هي بحدِّ ذاتها أُمور صالحة: العزم، والذكاء، وحُسن المنظر، والوجودُ بذاته. لهذا السبب لا تقومَ الثُنائيَّة، بمعنىً دقيق.

ولكنَّني لا أجد حرجاً في الاعتراف بأنَّ المسيحيَّة الحقيقيَّة (بوصفها متمايزة عن المسيحيَّة الهيِّنة) تصل إلى الثُنائيَّة أقربَ مما يظنُّ الناس. فمن الأمور التي فاجأتني عندما قرأتُ كتاب العهد الجديد أوَّلَ مرَّة بجدِّيَّة أنَّه يتكلَّم كثيراً جدّاً عن قوَّةٍ مُظلِمة في الكون: روح شرّير مقتدر يُعتقَد أنَّه القوَّة الكامنة وراء الموت والمرض والخطيَّة. أمَّا الفرق فهو أنَّ المسيحيَّة تعتقد أنَّ هذه القوَّة المظلمة خلقها الله، وأنَّها كانت صالحة لمَّا خلقها، ثمَّ فسدت. وتتَّفق المسيحيَّة مع الثنائية على أنَّ هذا الكون يخوض حرباً. إلاَّ أنَّ المسيحيَّة لا تقول بأنَّها حربٌ بين قوَّتين مستقلَّتين، بل ترى أنَّها حربُ أهليَّة، أو عصيان، وأنَّنا نعيش في جزء من الكون يحتلُّه العاصي المتمرِّد.

أرضٌ يحتلُّها العدوّ: تلك هي حالةُ هذا العالم. وتحكي لنا المسيحيَّة كيف أنَّ الملك الشرعيَّ قد هبط إليها (ولك أن تقول إنَّه هبط متنكِّراً)، وهو يدعونا للإسهام في حملة تعويق إحباط كبيرة لعملية التمرُّد. فعندما تذهب إلى الكنيسة، فأنت بالحقيقة تتنصَّت إلى اللاسلكيّ السِّريِّ الذي بعثه إلينا أصدقاؤنا. ولذلك يتلهَّف العدوُّ إلى منعنا من الذهاب. وهو يعمد إلى ذلك باستغلال غرورنا وكسلنا وتصلُّفنا العقلانيِّ الاستعلائيّ. وفي علمي أنَّ سائلاً قد يسألني: «أتقصد حقاً، في

هذا الوقت من النهار، أن تُعرِّف إلينا من جديد صديقنا القديم إبليس، بحافرَيه وقرنَيه وكلِّ ما لديه؟» حسناً، لستُ أدري ما دخلُ وقت النهار بهذا، ولستُ بمتوقّفٍ عند ذِكر الحافرَين والقرنين! ولكنْ، في ما عدا ذلك، جوابي هو: «نعم، أقصد ذلك!» ولستُ أزعم أنَّني أعرف أيَّ شيء عن مظهره الشخصيّ. فإذا أراد احدٌ حقّاً أن يعرفه على نحوٍ افضل، فأودُّ أن أقول لذلك الشخص: «لا تقلق! إذا أردت ذلك حقّاً، فسيكون لك ما تريد. أمَّا هل يعجبك المنظر حين تراه، فتلك مسألةٌ أُخرى!»

OPHIR

٣

الخيار المخجل

يعتقد المسيحيُّون إذاً أنَّ سلطاناً شرِّيراً جعل نفسه في الزمان الراهن رئيس هذا العالم. وهذا بالطبع يُثير بضع مسائل. أتوافق حالة الأُمور هذه مشيئة الله، أم لا؟ فإذا كان نعم، فستقول لي إنَّه إله غريب. وإذا كان لا، فكيف يمكن أن يحدث أيُّ شيء على نقيض مشيئة كائنٍ ذي قُدرة مطلقة؟

ولكنَّ أيَّ شخصٍ حائزٍ سُلطةً مّا يعرف كيف يمكن أن يكون أمرٌ من الأُمور موافقاً لإرادتك من جهة معيَّنة وليس من جهة أُخرى. فقد يكون معقولاً جدّاً أن تقول أُمٌّ لأولادها: «لَن أذهب إلى غرفة درسكم كلَّ ليلة لأُرتِّبها. عليكم أن تتعلَّموا المحافظة على ترتيبها بأنفسكم.» ثمَّ تذهب ذات ليلة إلى تلك الغرفة فتجد الدُبَّ الدُّمية ودواة الحِبر وكتاب قواعد اللغة مرميَّةً على شعريَّة الموقد. إنَّ ذلك مخالِف لإرادتها. وهي تؤثِر أن يكون الأولاد حراصاً على الترتيب. ولكن من الجهة الأخرى، هي إرادتُها التي تركت للأولاد الحرِّيَّة في أن يكونوا غير مُرتّبين. والأمر عينُه يحصل في أيِّ فوجٍ عسكريّ أو نقابةِ عُمّال أو مدرسة. فإنَّك تُخيِّر الناس في أمرٍ ما، وإذا بنصفهم لاً يعملونه. وليس ذلك ما أردتَه أنت، ولكنَّ إرادتك جعلته ممكناً.

ومن المحتمل أنَّ الأمر عينه حصل في الكون. فقد خلق الله كائناتٍ لها حرِّيَّة الإرادة، أي خلائق يمكنها إمَّا فعل الصواب وإمَّا فعل الخطأ. ويحسب بعضُ الناس أنَّهم يستطيعون تصوُّرَ مخلوقٍ حرِّ الإرادة إنَّما ليست لديه إمكانية إساءة التصرُّف. أمَّا أنا فلا أستطيع ذلك. فإنْ كان كائنٌ مّا حرّاً في أن يكون صالحاً، فهو أيضاً حرٌّ في أن يكون طالحاً. وحريَّة الإرادة هي الأمر الذي جعل الشرَّ ممكناً. فلماذا إذاً

وهب الله البشر حريَّة الإرادة؟ ذلك لأنَّ حريَّة الإرادة، وإن جعلتِ الشرَّ ممكناً، هي أيضاً الأمر الوحيد الذي يجعل ممكناً أيَّ حُبٍّ أو صلاح أو خير أو فرح تّما تجدر حيازته. فإنَّ عالماً آليَّ الحركة (فيه خلائقُ يشتغلون كالآلات) لا يكاد يستحق أن يُخلَق. والسعادة التي يُصمِّمها الله لخلائقه الأسمى هي سعادةُ كونِهم، بملء حريَّتهم واختيارهم، مُتَّحِدين به وبعضُهم ببعض في نشوةِ محبَّةٍ وابتهاج إذا قورِن بها أيُّ حُبّ خلاَّب بين رجُلٍ وامرأةٍ على هذه الأرض كان مجرَّد وهم أو سراب. ولأجل ذلك ينبغي أن يكونَ البشر أحراراً.

لا ريبَ أنَّ الله علمٍ بما سيجري إذا استعمل البشر حريَّتهم الاستعمال الخطأ؛ ويظهر أنَّه عدَّ ذلك أمراً يستحقُّ المغامرة! ولربَّما نشعر بميلٍ إلى عدم موافقته بالنسبة إلى ذلك. ولكنَّ في عدم موافقتنا لله صعوبةً بديهيَّة. فهو المصدر الذي منه تأتي كلُّ قدرةٍ لك على التفكير والتعليل: ولا يمكنك أن تكون على حقٍّ فيما يكون هو على باطل كما لا يُعقَل أن يرتفع النهرُ أعلى من منبعه! وحين تُجادله فإنّك إنَّما تجادل القدرة التي تمكّنك من المجادلة بعينها: وهذا يُشبه قطعك لغصنٍ أنتَ جالسٌ عليه. وما دام الله يحسب حالةَ الحربِ هذه القائمةَ في الكون ثمناً يستحقُّ أن يُدفع مقابل حريَّة الإرادة (أعني نظيرَ صُنع عالم تستطيع الخلائق فيه أن تعمل خيراً أو شرّاً حقيقيَّين، ويمكن أن يحدث شيءٌ ذوٌ أهميَّة حقيقيَّة، بدلاً من عالَم دُميةٍ يتحرَّك فقط حين يُحرِّك تعالى خيوطه) فلنا عندئذٍ أن نتقبَّل ذلك الثمن لأنَّه يستحقُّ أن يُدفَع.

ومتى فهمنا حقيقة حرِّيَّة الإرادة، يتبيَّن لنا كم هو سخيف أن نسأل، كما سألني أحدُهم مرَّةً: «لماذا صنع الله مخلوقاً من مادَّة فاسدة كهذه حتَّى انحرف وأخطأ وفسد؟» كلَّما كانت المادَّة التي صُنع منها المخلوق أفضل (أي أكثر ذكاءً وقوَّةً وحريَّة) تكون حاله أفضل إذا سلك سبيل الصواب، ولكنْ أيضاً تكون حالُه أسوأ إذا سلك سبيل الخطأ. فالبقرة لا يمكنها أن تكون صالحة جدّاً أو سيّئة جدّاً، والكلب يمكن أن يكون إمَّا أحسن وإمّا أسوأ، والولد أيضاً إمَّا أحسن وإمَّا أسوأ، والإنسان العاديُّ كذلك أيضاً على نحوٍ أزيَد، والعبقريُّ أزيد منه بعد. أمَّا الروح الفائق للبشر، فيمكن أن يكون أحسن الكلّ، أو أسوأ الكلّ.

كيف فسد سلطانُ الظُّلمة؟ هنا، بلا شكّ، نطرح سؤالاً لا يستطيع البشر أن

يجيبوا عنه إجابةً قاطعة. على أنَّ من الممكن تقديم تخمين معقول (وتقليديّ)، على أساس اختباراتنا الخاصَّة للإخفاق أو ضلال السبيل. فمَا إن تكونُ لك نفْس، حتَّى يقوم احتمالٌ بأن تضع نفسَك في المرتبة الأولى، مُبتغياً أن تكون أنت المركز، بل أن تكون الإله بالحقيقة. تلك كانت خطيَّة الشيطان، وتلك كانت الخطيَّة التي علَّمها للجنس البشريّ. ويعتقد بعض الناس أن سقوط الإنسان كانت له علاقة ما بالجنس؛ غير أنَّ هذا الاعتقاد خاطئ. (وما جاء في سفر التكوين يُشير بالأحرى إلى أنَّ فساداً مّا في طبيعتنا الجنسيَّة تبع السقوط وكان نتيجةً له، لا سبباً.) فما وسوس به الشيطان في رأسَي أبوينا الأوَّلين كان فكرة أنَّهما يمكن أن «يصيرا كالله»، يمكن أن يستقلاَّ بأنفسهما كما لو كانا هما قد خلقا أنفسهما، أن يكونا سيِّدَي ذاتهما، أن يخترعا لأنفسهما سعادةً من نوعٍ مّا بمعزلٍ عن الله أو خارج نطاقه. ومن تلك المحاولة اليائسة جاء تقريباً كلُّ ما ندعوه «التاريخ البشريّ»، المال والفقر والطموح والحرب والبغاء والطبقية والإمبراطوريّات والعبوديَّة، تلك القصَّة المروِّعة الطويلة التي تصف محاولات الإنسان أن يجد شيئاً غير الله يُبهجُه ويُسعِده.

أمَّا السبب في عدم إمكان نجاح الإنسان في ذلك فهو هذا: أنَّ الله قد صنعنا، أو اخترعنا كما يخترع المرء محرِّكاً. والسيّارة مصنوعة لتسير بالبترول، فلا يمكن أن تسير على نحوٍ سويٍّ بأيَّة مادَّة أُخرى. وقد صمَّم الله المكِنة البشريَّة بحيث تسير به. فهو نفسُه الوَقود الذي صُمِّمت أرواحُنا لإحراقه، أو الغذاء الذي صُمِّمت أرواحُنا لتقتات به. وليس من وقودٍ أو غذاء سوى ذلك. ولهذا السبب فلا فائدة أبداً في أن نطلب من الله أن يجعلنا سعداء بطريقتنا الخاصَّة، بغير أن يَعنينا أمرُ الدِّين. فلا يمكن أن يعطينا الله سعادةً وسلاماً بمعزلٍ عنه، لأنَّهما ليسا حيث هو غير موجود، وليس من شيءٍ كهذا.

ذلك هو مفتاح التاريخ. طاقاتٌ هائلة تُبذَل، حضاراتٌ تُنشأ، مؤسَّسات ممتازة تُبتكر؛ ولكنْ كلَّ مرَّة يخرب شيءٌ أو يفسد. فإنَّ عيباً مُهلِكاً من نوع مّا يُوصِل دائماً إلى القمَّة الأشخاصَ الأنانيِّين والعُتاة، وإذا بكلِّ شيءٍ يرتدُّ إلى الشقاء والخراب. وفي الواقع أنَّ المَكَنة تُفرقِع وتُقرقع. يبدو أنَّها تنطلق انطلاقةً حسنة، ثمَّ تسير بضعة أمتار، ثمَّ تتوقَّف. وهُم يحاولون أن يُسيِّروها بالوقود الخطأ. ذلك هو ما فعله الشيطان بنا نحنُ البشر!

وماذا فعل الله؟ أوّلاً، وضع فينا الضمير، حسَّ الصواب والخطأ؛ وعلى مرِّ التاريخ دأب أُناسٌ في محاولة إطاعة الضمير (حيث بذل بعضُهم أقصى جهدهم). ولكنَّ أيّاً منهم لم ينجح نجاحاً كاملاً قطّ. ثانياً، بعث إلى الجنس البشريِّ بما أدعوه «أحلاماً طيّبة»، أعني تلك القصص الغريبة المتفرّقة في ثنايا الديانات الوثنيَّة كلِّها عن إلَهٍ يموت ثمَّ ينبعث من الموت حيّاً، وبموته قد أعطى الناس حياةً جديدة على نحو ما. ثالثاً، اختار شعباً معيَّناً، وطوى بضعة قرونٍ محاولاً مراراً وتكراراً أن يُرسِّخ في أذهانهم أيَّ إلهٍ هو: أنَّه واحدٌ فقط ويعنيه السلوكُ الصائب تماماً. ومعلومٌ أنَّ هذا الشعب هو اليهود القدامى، وكتابُ العهد القديم يحكي خبر محاولات ترسيخ الحقِّ المتكرِّرة.

ثمَّ تحصل الصدمة العجيبة: من بين أولئك اليهود يبرز فجأةً إنسانٌ يجول متكلِّماً وكأنَّه الله ذاته! فهو يُصرِّح بأنَّه يغفر الخطايا. ويقول إنَّه استمرَّ موجوداً دائماً. ويقول إنَّه سيأتي كي يدين العالم في آخِرِ الزمان. فلنُوضح الآن هذا جليّاً. بين القائلين بوحدة الوجود، مثل الهندوس، يمكن لأيِّ إنسان أن يقول إنَّه جزءٌ من الله، أو إنَّه هو والله واحد، ولا يكون في ذلك غرابةٌ زائدة. ولكنَّ هذا الرجل، لكونه يهوديّاً، لم يكن ممكناً أن يعنيَ هذا النوع من الإله. فالله، في لغتهم يعني الكائن الموجود خارج نطاق العالم، والذي صنع العالم والمختلف اختلافاً غير محدود عن أيِّ شيءٍ آخر. حتَّى إذا أدركتَ ذلك، فلا بدَّ أن تعيَ أنَّ ما قاله ذلك الرجل كان، بكلِّ بساطة، التصريح الأكثر إذهالاً بين كلِّ ما نطقت به أفواه البشر على الإطلاق!

وينطوي ذلك التصريح، في جزء منه، على أمرٍ يسهل أن يفوتَ ملاحظتنا له، لأنَّنا طالما سمعناه كثيراً حتَّى لم نعُد نُدرِك أبعاده الحقيقيَّة. أعني دعوى ذلك الرجل بأنَّه يغفر الخطايا، أيَّة خطايا! فما لم يكنِ المتكلِّمُ هو الله، تكُن هذه الدعوى بالحقيقة مُحالةً جدّاً بحيث تُثير السخرية. ونحن جميعاً نفهم كيف يقدر امرؤ أن يغفر إساءاتٍ تُرتكب بحقِّه هو: كأن تدوس إبهام قدمي فأُسامحك، أو تسرق مالي فأصفح عنك. ولكن ما قولُنا في إنسانٍ لم يتعرَّض شخصيّاً للسَّلب أو الدَّوس، ويُعلِن أنَّه يغفر لك دوسَك إبهامَ إنسانٍ آخر أو سرقتك أموال الآخرين؟ إنَّ ألطف وصفٍ نُطلِقه على هذا التصرُّف هو أنَّه حماقة بلهاء! غير أنَّ ذلك هو ما فعله

يسوع المسيح: لقد قال للناس إنَّ خطاياهم مغفورةٌ لهم، ولم يتمهَّل قطُّ ليستشير الآخرين الذين، من غير ريب، آذتهم تلك الخطاي. إنَّما تصرَّف بلا تردُّد كما لو كان هو الفريق المعنيَّ أساساً والشخصَ المُساء إليه جوهريّاً في جميع الإساءات والمعاصي. يكون لهذا معنى معقولٌ فقط إذا كان هو بالحقيقة الله الذي خُولِفت قوانينُه أو شرائعُه والذي تجرح كلُّ خطيئةٍ محبَّته. أمَّا في فم أيِّ متكلِّم ليس هو الله، فهذا الكلام إنَّما ينطوي فقط على ما لا يمكنني أن أعدَّه إلاَّ سخفاً وغروراً لا يُجاريه فيهما أيُّ شخص آخر في التاريخ.

غير أنَّه (وهذا هو الأمر العجيبُ الغنيُّ الدلالة) حتَّى أعداؤه، حينما يقرأون الأناجيل الأربعة، لا يتكوَّن لديهم عادةً أيُّ انطباعٍ بالسخف والغرور؛ ويكون هذا الانطباع أقل أيضاً عند القراء غير المنحازين ثمَّ إنَّ المسيح يقول إنَّه «وديع ومتواضع القلب» ونحن نصدِّقه، دون أن نلاحظ أنَّه لو كان مجرَّد إنسان لكانت الوداعة والتواضع آخِر صفتين يمكننا أن نصف بعضَ أقواله بهما.

إنَّني أسعى هنا إلى منع أيِّ شخص أن يقول القول الغبي حقّاً والذي غالباً ما يقوله الناس بالنسبة إلى المسيح: «أنا مستعدٌّ لقبول المسيح على أنَّه معلِّم أخلاقيٌّ عظيم، ولـكنَّني لا أقبل دعواه بأنَّه الله.» ذلك القول هو الأمر الوحيد الذي يجب ألاَّ نقوله. إذ إنَّ إنساناً يكون مجرَّد إنسان ويقول مثل تلك الادِّعاءات التي قالها يسوع لن يكون معلّماً «أخلاقيّاً» عظيماً. إنه لا بدَّ أن يكون إمَّا مخبولاً، على مستوى واحد مع مَن يقول إنَّه بيضة مسلوقة، وإمَّا إبليسَ الجحيم! إذاً لا بدَّ من أن تحسم خيارك: إمَّا أنَّ هذا الشخص هو ابنُ الله، وإمَّا أنَّه مجنون، أو أسوأُ من ذلك. ولك إمَّا أن تُسكِته حاسباً إياه أبله، وتحتقره وتقتله كما لو أنه شيطانٌ، وإمَّا أن تجثو عند قدميه وتدعوه ربّاً وإلهاً. إنَّما لا نطلعنَّ بأيِّ فكرة استعلائية لا قيمة لها، عن كونه معلِّماً من البشر عظيماً. فهو لم يترك هذا متاحاً لنا، ولا قصد أن يجعله متاحاً!

٤

التائب المثالي

هكذا نجد أمامنا هذا الخيار المروِّع: أنَّ ذلك الرجُل الذي نتحدَّث عنه إمَّا كان وسيبقى ما قال إنَّه هو تماماً، وإمّا هو مخبول، أو أيُّ شيءٍ آخر أسوأ. والآن يبدو لي واضحاً أنَّه لم يكن مخبولاً ولا خبيثاً. وتالياً، فمهما بدا الأمر غريباً أو مُروِّعاً أو غير محتمل، ينبغي لي أن أقبل الرأي القائل بأنَّه كان وسيبقى هو الله. لقد هبط الله إلى هذا العالَم الذي يحتلُّه العدوُّ، في صورة إنسان.

والآن، ماذا كان القصد من الأمر كلِّه؟ ماذا جاء ليفعل؟ طبعاً كي يُعلِّم. ولكنْ ما إن تنظر في كتاب العهد الجديد أو أيِّ مؤلَّفٍ مسيحيٍّ صحيحٍ آخر، حتَّى تجِد هناك حديثاً ثابتاً عن أمرٍ مختلف: عن موته وقيامته حيّاً من جديد! وبديهيٌّ أنَّ المسيحيِّين يعتقدون أنَّ النُّقطة الجوهريَّة في القضيَّة تكمن ها هنا. فهم يَرون أنَّ الغرض الأساسيَّ الذي جاء إلى الأرض كي يفعله إنَّما كان أن يتألَّم ويُقتَل.

إنَّما قبل أن صرتُ مسيحيّاً حقيقيّاً كان يسيطر عليَّ الانطباع بأنَّ أوَّل أمر ينبغي للمسيحيِّين أن يؤمنوا به هو نظريَّة بعينها بشأن الغرض من موته. فحسب تلك النظريَّة أنَّ الله أراد أن يعاقب الإنسان على التحوُّل عنه والانضمام إلى العاصي الطاغي المُهلِك، ولكنَّ المسيح تطوَّع لتحمُّل القصاص عنَّا، فأطلق الله سراحنا. والآن أعترف بأنَّ هذه النظريَّة لا تبدو لي بالغة اللاأخلاقيَّة والسخف كما كانت حالُها عندي في ما مضى. ولكنْ ليست هذه هي النقطة التي أودُّ توضيحها والتأكيد عَلَيْها. فالذي تبيَّن لي حقّاً في ما بعد هو أنَّه لا هذه النظريَّة ولا سواها هي المسيحيَّة. فالعقيدة المسيحيَّة المركزيَّة هي أنَّ موت المسيح أصلح حالنا أمام الله ومعه ويسَّر لنا بداءة جديدة، بطريقةٍ من الطُرق. أمَّا النظريَّات التي تعلِّل كيف تمَّ ذلك فمسألة

أخرى. ولطالما اعتقد الناس مقداراً لا بأس به من النظريَّات المختلفة في كيفيَّة حصول الأمر. أمَّا ما يتَّفق عليه جميع المسيحيِّين فهو أنَّه حصل فعلاً ويؤدِّي غرضه حقّاً. وها أنا أقول لكم ما أعتقده بشأن ذلك. إنَّ جميع الناس العاقلين يعرفون أنَّه إن كنتَ تعباً وجائعاً فإنَّ وجبه طعام تنفعك. غير أنَّ نظريَّةَ التغذيةِ الحديثةَ (كلَّ ما يتعلق بالڤيتامينات والپروتينات) هي أمرٌ مختلف. ولطالما تناول الناس الطعام وشعروا بحُسن الحال قبل زمان طويل من سماع أحدٍ بنظريَّة الڤيتامينات فعلاً. وإذا تمَّ التخلِّي يوماً عن نظرية الڤيتامينات: فإنَّهم سيظلُّون يأكلون طعامهم على المنوال عينه تماماً. فالنظريَّات المتعلِّقة بموت المسيح ليست هي المسيحيَّة، بل مجرَّد تفسيرات لكيفيَّة وفاء ذلك الموت بغرضه. ولن يتَّفق المسيحيُّون كلُّهم على مدى أهميَّة تلك النظريَّات. والكنيسة التي إليها أنتمي (كنيسة إنكلترا) لا تُقِرُّ أيَّة واحدة منهنَّ على أنَّها النظرية الصحيحة. أمّا بعض الكنائس الأُخرى فتُجاوز هذا الحدَّ قليلاً. ولكنِّي أعتقد أنَّ الكنائس كلَّها تتَّفق على أنَّ الحَدَث نفسه أهَمُّ بما لا يُقدَّر من أيِّ تعليلاتٍ طلع بها اللاهوتيُّون. وأعتقد أنَّ الجميع يُحتمَل أن يعترفوا بأنَّ أيَّ تعليلٍ لن يُحيط بالحقيقة كلِّها أبداً. ولكنْ كما قلتُ في تمهيد هذا الكتاب، ما أنا إلاَّ مؤمنٌ من العامَّة، وعند هذا الحدِّ نخوض مياهاً غامرة. إنَّما يمكنني أن أُطلِعك على كيفيَّة رؤيتي إلى الأمر شخصيّاً، نظراً لكونها رؤيةً ذات قيمة، كما أحسب.

في رأيي أنَّ النظريَّات ليست في ذاتها ما هو مطلوبٌ منكم قبوله. ولربَّما قرأ بعضكم مؤلَّفات العالِمَين جيمس جينز وآرثر أدِّينغتنون فما يفعله هذان عندما يريدان تفسير الذرَّة، أو أيِّ شيءٍ من هذا القبيل، هو أن يقدِّما لك وصفاً يمكنك على أساسه أن تُنشئ صورة ذهنيَّة. إلاَّ أنَّهما لا يلبثان أن يُنبِّهاك إلى أنَّ تلك الصورة ليست هي ما يعتقده العلماءُ فعلاً. فما يعتقده العلماءُ إنَّما هو صيغة رياضيَّة أو حسابيَّة. وليستِ الصور إلاَّ لمساعدتك على فهم الصيغة. وليست الصُّوَر في الواقع صحيحةً على غرار صحَّة الصيغة، إذ لا تزوِّدك بالمادَّة الحقيقيَّة بل بمجرَّد شيءٍ يشابهها على وجه التقريب. فالمقصود من وراء الصُوَر أن تكون مساعِدة، وإذا لم تكن كذلك يمكنك نبذها. أمَّا الشيء نفسه فلا يمكن تصويره، بل يمكن فقط التعبير عنه رياضيّاً. وكُلنا هنا في الصفِّ نفسه. فنحن نؤمن بأنَّ موت المسيح في

سياق التاريخ هو تماماً تلك النقطة التي فيها ظهر في عالمنا هذا أمرٌ فائقٌ للتصوُّر كلّيّاً مصدرُه خارج هذا العالم. وإذا كنَّا نعجز حتَّى عن تصوُّر الذرَّات التي منها يتكوَّن عالمُنا بالذات، فمن غير ريب أنَّنا لن نتمكَّن من تصوُّر هذا الأمر الفائق. وبالحقيقة أنَّه لو تبيَّن لنا أنَّنا قادرون على فهم الأمر تماماً، فإنَّ هذا الواقع عينه يُبيِّن أنَّه ليس ذلك الأمرَ الذي يزعم أنَّه هو، أي الحقُّ غير القابل للتصوُّر والأزليُّ والآتي ممَّا وراء الطبيعة مخترقاً الطبيعة كالبرق. وربمّا تسأل: أيُّ نفع لنا فيه ما دمنا لا نفهمه؟ غير أنَّ الجواب عن هذا سهل. ففي وسع المرء أن يتناول غداءه بغير أن يفهم تماماً كيف يُغذيِّه الطعام. وفي وسعه أيضاً ان يقبل ما عمله المسيح بغير أن يفهم كيف يؤدِّي غرضه. وبالحقيقة أنَّه لن يعرف يقيناً كيف يفعل فعله إلاَّ متى قبله.

يُقال لنا إنَّ المسيح مات لأجلنا، وإنَّ موته غسَّلنا من خطايانا، وإنَّه بموته أبطل فاعليَّة الموت بعينه. تلك هي الصيغة. تلك هي المسيحيَّة. ذلك هو ما ينبغي أن نؤمن به. أمّا النظريّات التي نُنشئُها بشأن كيفية إتمام موت المسيح لكامل أبعاده، فهي في رأيي أمرٌ ثانويٌّ تماماً، إذ هي مجرَّد ترسيمات أو تصاميم ينبغي نبذُها إن كانت لا تساعدنا، وإذا ساعدتنا فعلاً فينبغي عدم الخلط بينها وبين الأمر الحقيقيِّ بعينه. ومع ذلك، فإنَّ بعض هذه النظريَّات تستحقُّ أن نُلقيَ نظرةً عليها.

إنَّ النظرية التي سمع بها معظم الناس هي تلك التي ذكرتُها سابقاً والقائلة بأنَّه قد أُطلق سراحنا لأن المسيح تطوَّع أن يتحمَّل القصاص عوضاً عنّا. فالآن، تبدو هذه النظريَّة في ظاهرها سخيفةً جدّاً. إذا كان الله على استعداد للعفو عنَّا، فلماذا لم يفعل ذلك يا تُرى؟ وأيُّ داعٍ معقول لمعاقبة شخصٍ بريءٍ بدلاً منّا؟ ليس ثمَّـة داعٍ معقول يمكنني أن أراه حقاً إن كنتَ تُفكِّر في العِقاب بلغة محكمة الجُنَح. أمَّا إذا فكَّـرتَ في دَينٍ مّا، فثمَّة معنىً وافٍ في أن يدفع شخصٌ ميسور دَيناً بالنيابة عن شخصٍ معسور. أو إذا نظرت إلى «تأدية العقوبة» لا بمعنى تحمُّل القصاص، بل بالمعنى الأعمِّ الذي يخصُّ «تحمُّل النفقات» أو «دفع الفاتورة» (أي تسوية الحساب)، فعندئذٍ بالطبع يُبيِّن لنا الاختبار العامُّ أنَّه حين يتورَّط إنسانٌ في مأزقٍ ما، فإنَّ عناء إخراجه منه يقع عادةً على عاتق صديقٍ مُحِبّ.

والآن، ما نوع «المأزق» الذي تردَّى الإنسان فيه؟ لقدْ أراد أن يستقلَّ بنفسه، متصرِّفاً كأنَّه يخص نفسه. بكلمة أخرى: ليس الإنسان الساقط مجرَّد مخلوقٍ

ناقص يحتاج إلى تحسين، بل هو عاصٍ متمرِّدٌ يجب أن يُلقيَ سلاحه. فإلقاؤك سلاحك، واستسلامُك، وتعبيرك عنْ ندامتك وأسفك، وإدراكك أنَّك سالكٌ سبيل الضلال، واستعدادك لبدء الحياة مجدَّداً من نقطة الصفر... تلك هي الطريقة الوحيدة للخروج من مأزقنا. وعمليَّة الخضوع هذه، التي تشبه حركة دوران سريعة إلى الوراء، هي ما يسمِّيه المسيحيون «التوبة». وليست التوبة أمراً ممتعاً أبداً. فهي شيءٌ أصعب بكثير من مجرَّد تناوُل وجبةٍ وضيعة. إنَّها تعني اطِّراح كلِّ ما درَّبنا أنفسنا على حيازته طوال آلاف السنين من عُجبٍ وافتخارٍ كاذبٍ وعناد. إنَّها تعني قتل جزءٍ من ذاتك أو معاناةَ نوعٍ من الموت. وبالواقع أنَّ التوبة تستلزم إنساناً صالحاً. وها هُنا الورطة المُربِكة: فالإنسان الطالح وحده ينبغي أن يتوب، إنَّما الإنسان الصالح وحده يقدر أن يتوب توبةً كاملة. وكلَّما ازددت فساداً تضاعف احتياجك إلى التوبة، وقلت قدرتك على القيام بها. فالشخص الوحيد القادر على أن يتوب توبةً كاملة ينبغي أن يكون شخصاً كاملاً، وهذا لا يكون محتاجاً إلى التوبة.

إنَّما تذكَّر أنَّ هذه التوبة، أي هذا الخضوع الطوعيَّ للخزي ولِما يُشبِه الموت، ليست أمراً يطلبه منك الله قبل أن يقبلك من جديد، ويُمكن أن يُعفيك منه إذا شاء، بل إنَّها بصريح العبارة وصفٌ لِما يُثِّله الرجوع إليه. فإن طلبتَ إلى الله أن يقبلك من جديد بغير توبة، تكون بالحقيقة طالباً إليه أن يسمح لك بالرجوع إليه بغير أن ترجع. وهذا أمرٌ يستحيل حدوثه. حسنٌ جدّاً إذاً، علينا أن نُنجِزها! غير أنَّ الفساد الذي يجعلنا بحاجةٍ إليها هو نفسُه يجعلنا عاجزين عن القيام بها. فهل نقدر أن نقوم بها إذا ساعدنا الله؟ نعم، ولكنْ ماذا نعني بذكرِنا مساعدةَ الله لنا؟ نعني وضْع الله فينا جزءاً من ذاته، إذا جاز التعبير. إنَّه يمنحنا شيئاً من قدراته التفكيريَّة، وبهذه الكيفيَّة نُفكِّر؛ ويبثُّ فينا قليلاً من محبَّته، وبهذه الكيفيَّه نحبُّ بعضُنا بعضاً. وعندما تُعلِّم ولداً الكتابة، تمسك بيده وهو يرسم الأحرف. ذلك أنَّه يُصوِّر الأحرف لأنَّك أنت تُصوِّرها. فنحن نحبُّ ونفكِّر لأنَّ الله يحبُّ ويفكِّر ويمسك بأيدينا فيما نفعل ذلك. ولو لم نسقط، لكان ذلك كلُّه سَفَراً سعيداً. لكنَّنا الآن، للأسف!، نحتاج إلى مساعدة الله كي نفعل شيئاً لا يفعله الله أبداً في ذات طبيعته: كي نستسلم ونتألَّم، ونخضع، ونموت. فلا شيءَ في طبيعة الله يتوافق مع هذه العمليَّة إطلاقاً. وعليه، فإنَّ الدرب الوحيد الذي فيه نحتاج الآن إلى هداية الله

أكثرَ الكُلِّ هو دربٌ لم يسلكه الله قطُّ، في ذاتِ طبيعته. وفي مقدور الله أن يمدَّنا بما لديه. إنَّما هذا الأمر بعينه ليس لديه في ذات طبيعته.

ولكنْ هبِ الله صار إنساناً، هبْ طبيعتنا البشريَّة التي يمكن أن تتألَّم وتموت اندمجت بطبيعة الله في شخصٍ واحد، فعندئذٍ يكون في مقدور ذلك الشخص أن يساعدنا. وفي وسعه إذ ذاك أنْ يُخضِع إرادته ويتألَّم ويموت، لأنَّه إنسان؛ كما أنَّ في وسعه أن يفعل ذلك على نحوٍ كامل تماماً، لأنه الله. ولا يمكننا، أنا وأنت، أنَّ نجتاز هذه العمليَّة إلاَّ إذا عملها الله فينا. ولكنَّ الله لا يمكن أن يعملها إلاَّ إذا صار إنساناً. ولن تنجح محاولاتنا في إطار عمليَّة الموت هذه إلاَّ إذا شاركنا نحن البشر في اختبار الله للموت، تماماً كما أنَّ تفكيرنا لا يمكن أن ينجح إلاَّ لكونه نقطةً من بحر تفكيره وعقله. إنَّما لا يمكننا أن نُشارك في اختبار الله للموت ما لم يُمِت الله فعلاً، ولا يمكن أن يموت تعالى بغير أن يكون إنساناً. بهذا المعنى يفي الله دَيننا ويُعاني عوضاً عنَّا ما لا يحتاج هو نفسه لأن يُعانيَه أبداً.

وقد سمعتُ بعضاً يتشكَّون قائلين: «إن كان المسيح هو الله كما هو إنسانٌ أيضاً، فعندئذٍ تفقد آلامُه وموته كلَّ قيمة في نظرنا، لأنَّه لا بدَّ أنَّ ذلك كان سهلاً جدّاً عليه.» إلاَّ أنَّ آخرين قد يشجبون (على نحوٍ صحيح جدّاً) ما ينطوي عليه هذا الاعتراضُ من نكرانِ جميل وفظاظة. ولكنْ ما يذهلنيَ أنا هو ما ينمُّ عنه هذا الموقف الثاني من سوء فهم. فبمعنىً ما طبعاً، مُقدِّمو هذا الاعتراض على حقّ. بَلْ إنَّهم قصَّروا في دعم قضيَّتهم الخاصَّة. فالخضوع الكامل، ومعاناة الآلام الكاملةُ، والموتُ الكامل، لم تكُن فقط أسهل على المسيح لأنَّه هو الله، بل إنَّها كانت ممكنة فقط لأنَّه هو الله. ولكنْ أليس هذا سبباً غريباً جدّاً لعدم قبولها؟ إنَّ المعلِّم قادرٌ على رسم الحروف للولد لأنَّ المعلِّم راشد ويعرف كيفيَّة الكتابة. ولا ريبَ في أن كونه راشداً يجعل الأمر أسهل على المعلِّم؛ وفقط لأنَّه أسهل عليه فإنه يستطيع أن يساعد الولد. فإذا رفض الولد المعلِّم، لأنَّ الكتابة «سهلةٌ على الراشدين»، وانتظر أن يتعلَّم الكتابة من ولد آخر لا يقدر هو نفسُه أن يكتب (وتالياً لا تكون له أفضليَّة «مُجحِفة»)، فإنَّه لن يتقدَّم في تعلُّمه بسرعة زائدة. وإذا كنتُ أغرق في نهرٍ جارف، فقد يُناولني رجلٌ ما زالت إحدى قدميه على الضفَّة يداً تُنقِذ حياتي. أفينبغي لي أن أردَّ صارخاً (بين لهثاتي): «لا، هذا مُجحِف! أنت صاحبُ أفضليَّة! إنَّك تُبقي

إحدى قدميك على الضفَّة!»؟ إنَّما تلك الأفضليَّة (سمِّها إجحافاً إذا شئت) هي السبب الوحيد لقدرة الرجُل على إسداء أيِّ خير إليَّ. فإلى أيِّ مصدرٍ تتطلَّع طلباً للعون إن كنتَ لا تتطلَّع إلى ذاك الذي هو أقوى منك؟

هذه هي طريقتي في النظر إلى ما يدعوه المسيحيُّون «الكفّارة». إنَّما تذكَّر أنَّ ما أوردتُه هو صورةٌ أُخرى ليس غير. فلا تغلط بحسبانها الشيءَ الحقيقي بذاته. وإن لم تجد فيها أيَّ عونٍ لك، فاترُكْها ضارباً عنها صفحاً!

OPHIR